

الملف

آفاق المشهد في فلسطين

الرسائل السياسية في الطبوغرافيا المبنية للقدس

رشيد الخالدي

١

كانت القدس رمزاً للسلطتين الزمنية والروحية لما يزيد عن أربعة آلاف عام. وقد شكّل حكام المدينة المقدسة، على مدار هذه الفترة، وأعادوا تشكيل وجهها المعماري تكراراً، لتبليغ رسائل ذات دلالة عن سلطة القدس وسلطتهم.

استهدف كل تغيير من تلك التغييرات في وجه المدينة، ما سادعوه بالطبوغرافيا المبنية، تحقيق عدة أغراض قد تتساقق زمنياً في بعض الأحيان. فربما كان القصد من بناء ما إيواء حجيج، أو جنود، أو تمجيد الرب، أو إسكان ملك، أو صليبي، أو مستوطن، بصورة مهيبة. ولكن أريد من الأبنية، فردية ومجمعة في آن، تبليغ رسائل دينية أو سياسية صريحة، فُصدت قراءتها فرادى ومجمعة كطاقم واحد في الوقت نفسه.

يعرف معظم الحاضرين في هذا المؤتمر، وأرجو أن يتعرف القادمون إلى هذا المؤتمر من الخارج، في فترة وجودهم هنا، على بعض معاني المباني المهيمنة على معظم وجه القدس في الوقت الحاضر.

تزحف على التلال المحيطة بالمدينة، في حلقات موحدة المركز، قريبة من المدينة القديمة وعلى مسافة منها، سلسلة من الأبنية تكاد تكون عسكرية الطابع. أبنية موحدة مترابطة في صفوف متقاربة، تشيع إحساساً بالعدوانية والدفاع في آن.

لقد شيدت تلك الأبنية، سواء منها المبنية لنحو ١٧٥ ألفاً من الإسرائيليين الذين جرى توطينهم في الجزء الشرقي من القدس منذ عام ١٩٦٧، أو الحكومية وشبه

الحكومية، خدمة لتلك الأغراض الدنيوية ومن أجل شهادة سياسية أيضاً. يعكس قبج تلك الأبنية وصرامتها، مقابل المشهد القائم، وخلافاً لبقية الطوبوغرافيا المبنية للمدينة، السمة السياسية لوجودها : احتلال الفضاء [المساحة] تغطية الأرض، ودق وتد دعوى ملكيتها، بصرامة وبساطة.

يمكننا قراءة تلك الأبنية وفهم ما تعنيه، وما يُطلب منها تأديته من مهام، تماماً، كما تعلمنا قراءة مشاهد أخرى، وأنماط أخرى من النصوص المشيدة. وكمؤرخ أنفق بعض الوقت في التفكير بالقدس والنظر إليها، لكنه لم ينل تأهيلاً أو تجربة في تاريخ الفن، أو جوانب أخرى من الثقافة البصرية، أقترح القيام بثلاثة أشياء متواضعة في هذه الورقة التمهيديّة:

عرض نوع من السياق التاريخي لعملية الكتابة بالحجر على الطوبوغرافيا المبنية للقدس، استخدام المباني لتبليغ رسالة، وعرض بعض التأمّلات حول تناقض المظهر الخارجي التقليدي، الإسلامي أساساً، للمدينة، مع المظاهر التي فرضتها إسرائيل خلال السنوات القليلة الماضية، لتأكيد بعض التضمينات السياسية لتلك الصفوف المسنّنة من الحراس الحجريين للمشروع الكولونيالي الإسرائيلي في القدس.

٢

لقد زَيْنَ بعض أشهر البناة في التاريخ، بينهم هيرود الأكبر، والإمبراطور الروماني قسطنطين، والخليفة الأموي عبد الملك، والسلطان سليمان القانوني، القدس بواسطة أبنية رئيسية، خدمة لأغراض الحكومة، أو العبادة، أو العلاج، لكنها كانت تستهدف تبليغ رسائل مختلفة أيضاً. كما ترك عدد من الحركات القوية، والسلالات الحاكمة، والإمبراطوريات، والصليبيين، والمماليك، والإمبراطورية البريطانية، والحركة الصهيونية، بصمة على وجه المدينة.

ويمكن اليوم قراءة آثار بعض النصوص التي تكفلوا بها أو ألهموها (بحجر القدس الذهبي الباهت في أغلب الأحيان) في الطوبوغرافيا المبنية للمدينة، في أفق المدينة، في شوارعها، أو تحت بعض طبقاتها الأركيولوجية الكثيرة.

نحن نعرف شيئاً ما، وأحياناً قليلاً جداً، عما كانت تبدو عليه القدس في عصور سابقة. فقد قدّم لنا علم الآثار وفرّة من الشواهد الناقصة، معظمها على هيئة شظايا غير منتظمة من الحجر وقطع الفخار. كما أتاحت لنا المخطوطات القديمة، والمصادر التوثيقية الأخرى، المزيد من الشظايا واللحاحات والروايات المتناقضة. جرى بحث وتفصيل تلك المعطيات على يد علماء آثار ومؤرخين وآخرين، في صور عن الطوبوغرافيا المبنية للقدس، ومظهرها المادي في حقب مختلفة.

أحياناً، كانت ثمة اجتهادات نابغة عن توجّهات دينية أو قومية صريحة أو مبطنّة، وعلى درجة من الخيالية تتأخّم حد العبث. أحد أمثلتها نموذج ضخم يوهّم بتمثيل هيكل هيرودس، يخرج على مدار الساعة، أمام عيون السائحين المبهورين، من تحت نماذج للمسجد الأقصى وقبة الصخرة، البناءان البارزان اللذان زيّنّا الحرم الشريف طيلة الألف وثلاثمائة عام الماضية.

يجري العرض في حجرة واسعة (ربما كانت من أصل أموي أو مملوكي، وذلك لا يقال أبداً للسائحين) داخل النفق الذي فتحته السلطات الإسرائيلية على مقربة أمتار من مكان الحائط الغربي لسور الهيكل، ويتأخّم الحرم نفسه، مباشرة.

في أوقات أخرى، كانت تلك اللوحات لما كان عليه وجه القدس في الماضي، متزنة إلى حد معقول. رغم أننا لا نملك ما يؤكد أن أكثر الرؤى اتزاناً كانت صائبة في الواقع. فما هي إمكانية الفحص التي بين أيدينا للتحقق من دقة أي نص قديم كالتوراة، يمكن استخدامه كمصدر تاريخي بكثير من الحذر فقط؟ وكيف نقيّم روايات شهود عيان من عدة قرون مضت مثل يوسيفوس، أو المطران أركولفوس، أو ناصر خسرو، أو مجير الدين؟

وإذا كانت تلك عيّنة من مصادرنا الوثائقية، كيف نثق بالمصادر الأركيولوجية، في حين أن نسبة ضئيلة من مسطح القدس نُقبت بجدية ووسائل علمية، ولم ينشر من نتائج تلك الحفريات إلا القليل؟ وبالتالي، بقيت المعطيات الرئيسية المتعلقة بالحفريات الأركيولوجية الإسرائيلية جنوبي الحرم، مثلاً، وقد تكون الأكثر شمولية في تاريخ القدس، غير منشورة.

وما زلنا، على نحو خاص، لا نملك التحليل العلمي لنحو ستة من الأبنية الحجرية الضخمة التي يرجع تاريخها إلى أوائل العصر الأموي، كشفها مازار وبن دوف قبل عقدين من الزمن تقريباً. واليوم، ما زالت بقايا مهمة منها مرئية في الحديقة الأركيولوجية الواقعة جنوبي الحرم مباشرة.

ورغم ذلك، ما زلنا نستطيع العثور، في عمل أوليغ غرابر، ومايكل هاملتون وبورغوين، ومثير بن دوف، وداني باهات، وقلة غيرهم، على بعض صور لاحتمال ما كانت عليه القدس في الماضي. يحاول أفضل هذه الأعمال، خاصة غرابر وبورغوين، تخيل ووصف وتفسير ما استهدف حكّام مختلفون، وأنظمة متنوّعة في القدس، إظهاره للملأ، عن طريق التفاعل بين الطبوغرافيا المبنية للمدينة، التي كان بوسعهم التحكم فيها إلى حد كبير، والطبوغرافيا الطبيعية للمدينة، التي لم يكن في وسعهم التحكم فيها، أو أنهم فعلوا ذلك، بطريقة جزئية فقط.

نجد في خرائطهم وتخطيطاتهم، وفي أماكن ما زالت قائمة كبقايا أركيولوجية، وفي نماذج مبتكرة ومدهشة مكونة بالكومبيوتر لدى غرابر، شكل المقدّس، الذي نحاول بواسطته تصوّر ما يعرضه منظر طوبوغرافيا القدس المبنية للرائي في حقب مختلفة. إن معظم النقاش في هذا القسم قائم على دراسات الباحثين الأربعة. ويتضح من قوام أعمالهم أن أعظم الحكّام، وأقوى الأنظمة، بذلت الجهد لترويض بعض عناصر الطوبوغرافيا الطبيعية للقدس، بمشاريع عمرانية، وكانت النقاط العالية في العديد من أماكن مدينة التلال الكثيرة هذه مركز جذب لهم.

من الواضح أن هيروود، وربما بعض البناء قبله، رغم محدودية نجاحهم بفعل طوبوغرافيا جبل موريا، قاموا بتسطيح الجبل وتوسيعه فأنشأوا المنصة الكبيرة التي تحوّلت إلى قاعدة أرضية للحرم الشريف، كما نراها اليوم. كما يمكن رؤية ضخامة المهمة التي أخذها هيروود على عاتقه عبر تفحص الجدران الباقية، التي كانت دعائم لتلك المنصة، ويمثل الحائط الغربي اليوم أحد أجزائها.

قام هيروود بأكثر من مجرد إنشاء مكان للعبادة على قمة جبل، تخبرنا التوراة بأنه من صنع داود، وسليمان وآخرين قبله، بل ذهب أبعد من ذلك، فغطى الجبل بسيواجه المستطيل المنبسط الضخم، وختمه بمعبد على شكل صندوق هائل الحجم.

وبالقدر نفسه، وضع الضريح المقدس (المدعو آنذاك) Martyrium في قمة المكان الذي اعتقد الإمبراطور قسطنطين، بوحي من اكتشافات أمه الإمبراطورة هيلانة أثناء حجها إلى القدس، بأنه تل الجلجثة. فأطل ذلك البناء، وما خلفه، لعدة قرون على المدينة من جانبها الغربي، كما تُبيّن نماذج غرابر المصممة بالكومبيوتر، ربما بقدر بالغ الوضوح. في هذه الحالة، أيضاً، قام البناء بتطويق وتغطية قمة تل، وأشرف منها على محيطه. ويمكننا، عن طريق التخمين فقط، تصوّر كيف كان Martyrium قسطنطين وبقية الأبنية التي شكّلت الضريح القدّس فيما بعد (رغم أن ويلكينسون وغرابر وغيرهم قدموا لنا أدلة معقولة). ويمكن القول أن الطرف الغربي المدوّر للمركب، والقبة التي فوقه عكست قمة التل الذي غلّفته.

بعد قرون قليلة، في عام ٦٩٢، استأنف عبد الملك وابنه الوليد - اثنان من أعظم البناء في تاريخ الإسلام - ما توقّف عنده هيروود في إعادة تشكيل الطوبوغرافيا المبنية للمدينة. أعادوا بناء المنصة الكبيرة التي صنعها لسياح معبده ووسعوها، ليقيموا عليها قبة الصخرة ومسجداً أقصى أكبر حجماً وأكثر عظمة: أكبر كثيراً من البناء المدهش تماماً الذي نراه اليوم. وإلى الجنوب أنشأوا سلسلة من أبنية متعددة الطبقات، لم يُعرف وجودها إلا بفضل الحفريات الأخيرة، ولا يمكن معرفة الغرض منها إلا على

سبيل التخمين، لكنها أضافت الكثير إلى حجم التل الذي بنيت على سفحه. كما بدأوا مباشرة، غربي هذه المنصة الشاسعة التي عُرفت من يومها بالحرم الشريف، عملية ردم وفي النهاية إزالة للطرف الشمالي للوادي، الواقع في الأزمنة القديمة بين التلين الغربي والشرقي للمدينة. وفي القرون التالية استُكملت هذه العملية على يد خلفائهم البناة الكبار من المماليك.

كانت لكل من تلك التغييرات الرئيسية في الطوبوغرافيا المبنية للقدس، بالطبع، دلالة دينية عميقة، تتصل بالمشروع الديني المركزي لكل واحد من الأديان الإبراهيمية الثلاثة، لكنها كانت ذات تضمينات سياسية قوية أيضاً، مما يعيدنا إلى الموضوع الرئيسي لهذه الورقة.

فقد أنشأ هيرود معبده، ربما حيث بنى سليمان قبله، ليس لجذب وتأكيد قدسية مكان كان قديماً بالفعل في زمنه وحسب، ولكن لتأكيد سلطته وعظمة عهده أيضاً. تجدر الملاحظة أن معبد هيرود المهيّب - إذا كانت جدران الدعامات الضخمة للسياج، التي ما زلنا نستطيع رؤيتها حتى اليوم على سطح الأرض وتحتها دلالة عليه - لم يكن كل ما بناه هيرود في القدس. فقد بنى قلعة ضخمة شمالي المعبد، وقصراً في الجانب الغربي للمدينة، تعلوه ثلاثة أبراج كبيرة.

وكانت تلك الأبنية - حسب رواية يوسيفوس، أحد المصادر الرئيسية لما كانت عليه القدس في تلك الفترة - أكثر إثارة للإعجاب في بعض جوانبها من المعبد نفسه. نعرف أن الرومان أعجبوا جداً بتحسينات القصر، فأبقى تيتوس، الذي دمر المعبد والكثير من المباني في القدس، على بعض تلك الأبراج الكبيرة، وأعاد استخدامها. وربما تشكل بقايا أحد الأبراج أساسات القلعة التي نراها اليوم، ويرجع تاريخ أغلب أجزائها إلى عهد الصليبيين والأيوبيين والمماليك.

استهدف كل ذلك البناء في القدس (وأماكن أخرى في فلسطين) ترسيم سلطة أحد أعظم الحكّام الرومان في عصره بطريقة لا تقبل الزوال (حتى القليل من بقايا تلك الأبنية يؤكد هذا الأمر في الوقت الحالي).

على نحو مشابه، كان الهدف من الضريح المقدس تأكيد قداسة المكان الذي صُلب فيه يسوع، والسيادة السياسية للسلطة المسيحية على مدينة عذابات يسوع وصلبه، مدينة كانت العاصمة الروحية والسياسية لليهود. كما استهدف خلق التضاد الحاد بين عظمة الضريح المقدس، والخراب القاحل لموقع الهيكل، التأكيد بأن القدس الآن مدينة أتباع يسوع، وأنها لم تعد مدينة لليهود، حيث تم إبقاء مكانهم المقدس، عمداً، في حالة خراب، ومُنعوا من دخول المدينة.

وخلال القرون المسيحية الثلاثة من عهد قسطنطين حتى الفتح الإسلامي، كانت الطوبوغرافيا المبنية للمدينة، عبر أربع من أعلى نقاطها، تحت إطلالة أربعة معالم مسيحية بارزة : الضريح المقدس، كنيسة نيا الكبرى، التي بناها الإمبراطور جوستينيان على الطرف الجنوبي لما يعرف الآن بحارة اليهود، ودمرها زلزال كبير، وكنيسة نياحة العذراء على جبل صهيون، وكنيسة الصعود على جبل الزيتون.

ما زلنا نستطيع رؤية الضريح المقدس، وإن يكن في شكل يختلف تماماً عما كان عليه عند إكماله عام ٣٣٥، وكذلك كنيسة نياحة العذراء، وكنيسة الصعود، وقد أُدخلت عليها تعديلات كثيرة وأصبحت محاطة بأبنية شيدت في أوقات لاحقة. ورغم أن كنيسة نيا اختفت بلا أثر، فما زال في الإمكان تخيل التضمينات السياسية المقصودة من تنصيب تلك المعالم المسيحية الكبيرة المطلّة من عدة نقاط مرتفعة على المدينة، التي كانت في تلك الفترة من التاريخ ثنائية القداسة فقط، للمسيحيين واليهود.

تجدد الملاحظة أن الأبنية المسيحية الأربعة قد أطلت وهيمنت على الأماكن الأكثر قداسة لدى اليهود في القدس، خاصة جبل الهيكل والمقابر القديمة والمعالم على سفوح جبل الزيتون وفي وادي قدرون. ولغرض يتجاوز التصريح الانتصاري بفوز الدين الجديد، فقد قُصد من التأثير البصري لتلك الأبنية وهي في حالة تضاد مع خراب فناء المعبد، تأكيد تفوّق المسيحية على اليهودية.

الرسالة البصرية القوية : أماكننا العالية تقف مترفة، تسطع بالضوء، بينما أماكنكم مظلمة ومحطمة، كان المقصود منها استكمال التقديرات الرومانية - البيزنطية على إقامة اليهود في القدس، والصلاة في أو قرب جبل الهيكل. وبينما كانت طبيعة الطقوس المسيحية في القدس احتفالية في الغالب، اتسمت طبيعة الطقوس اليهودية في القرون التالية لتدمير معبد هيرود بالنواح على أمجاد الماضي.

اختار الحكام الجدد المسلمون للقدس وسيلة مختلفة نوعاً ما لتحقيق الأهداف نفسها في تأكيد سيطرتهم السياسية، وإبراز تفوّق دينهم على سابقه. لم يخرّبوا أو يستولوا على الأماكن المقدسة لخصومهم المسيحيين المهزومين - خلافاً لما جرى في دمشق عندما اقتسمت كنيسة القديس يوحنا في البداية بين الديانتين، ثم استولى عليها الخليفة الوليد، باني الأقصى، فهدمها لبناء المسجد الأموي مكانها - كما لم يحاول المسلمون في البداية إقامة أبنية منافسة للأبنية المسيحية على النقاط العالية حول القدس، رغم أن بعض المساجد بُنيت في نهاية الأمر قرب بعض تلك المواقع المسيحية. ولكن المسلمين الأوائل، ربما للوهلة الأولى بعد فتح المدينة، أو بعدها على الفور، شرعوا في تجليل مكان آخر شديد الاختلاف، منصة معبد هيرود المهجورة منذ زمن بعيد. أما روايات

كيف وامتى بدأ ذلك فمتناقضة. ففي وقت ما بعد فتح المسلمين للمدينة، عام ٦٣٧ أو مطلع ٦٣٨، قام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بزيارة المدينة، حيث تعرّف على المكان السابق المهجور للمعبد، وثبته كمكان لعبادة المسلمين. وسرعان ما شيّد مسجد بسيط في الطرف الجنوبي للمنصة الهيرودية. وأطلق على هذا المكان اسم الأقصى نسبة إلى إسرائ النبي في القرآن من مكة إلى المسجد الأقصى.

عزز كثير من الخلفاء بعد عمر صلة المسلمين بهذا المكان، بمن فيهم الخليفة الأموي الأوّل معاوية، أحد أكثر القادة السياسيين دهاء في عصره، حين حصل بصفة رسمية على مبايعته خليفة من جانب زعماء المسلمين في القدس عام ٦٦١، ربما في الحرم الشريف. فخلق بتلك الوسيلة، كما يقول غرابر، سابقة اقتران القدس بمنح الشرعية للسلطة، بطريقة أعلى وأبعد مما تعنيه المعاني الدينية المرتبطة بالمدينة.

وقد انخرط معظم الخلفاء الأوائل في أنها عملية متواصلة من البناء الجديد وإعادة التعمير، ولكن لم يتخذ هذا الموقع، بهذا القدر أو ذاك، المظهر البادي عليه اليوم إلا في نهاية القرن السابع على يد عبد الملك والوليد. وربما كانت النتيجة، أي قبة الصخرة أكثر بناء لافت للنظر في نطاق العمارة الإسلامية بأسرها، ونتاجت معها بؤرة دينية وسياسية جديدة تماما بالنسبة للمدينة كل.

فما فعله المسلمون في القرون الستة الأولى من حكمهم للقدس كان السيادة على المدينة سياسياً ودينياً بتغيير طوبوغرافيتها المبنية. من المهم الملاحظة أنهم كانوا يفعلون ذلك في محيط مدينة كان أغلب سكانها، وظلوا حتى فترة طويلة، من المسيحيين. وقد أكملوا هذا الطاقم، بإعادة بناء المسطح الأرضي الهيرودي المستوي مع الطرق المؤدية إليه وبعض مصاطبه، في بناء فريد، وجمال لا تخطئه العين في قبة الصخرة، وسلسلة أخرى من الأبنية المهيبة إلى الجنوب.

ضمت تلك المباني مسجداً أقصى مقبباً أكبر بكثير مما نراه اليوم، أو مما وصفه المطران أركلوف عام ٦٧٠، وسنة أبنية متلاصقة متاخمة للحائطين الجنوبي والجنوبي الغربي للحرم الشريف.

توّج البناء المهرة الذين لبوا دعوة عبد الملك والوليد قمة جبل موريا، كما فعل أسلافهم في عهد هيرود، لكنهم أعطوها طلعة مختلفة لتبليغ رسالة مختلفة. أتموا الجسد المثلث الأضلاع للبناء بقبة ضخمة، ترتفع مع البناء على منصة عن بقية الحرم، كأنهم شيّدوا خطوات متدرجة في الصعود إلى الله. جبل من صنع الإنسان على المكان المقدس من قبل في قمة جبل موريا. وقد عكست القبة الذهبية ضوء الشمس الساطع بطريقة يمكن رؤيتها من مختلف أرجاء المدينة، ومن مسافة بعيدة عنها.

وإذا رأيناه خاصة من جبل الزيتون إلى الشرق أو من الجنوب، فإن الطاقم ينطق بجهود الإنسان لتمجيد الله، وبالسلطة السياسية، كما ينطق بحس تناسق التصميم وثروة أولئك الذي أمروا بتشييد تلك الأبنية الرائعة. فما زالت قادرة على إثارة إحساس المشاهد بالدهشة، عند رؤيتها عن قرب أو من مكان آخر.

ما عدا المسلمين أنفسهم، ومن يمكن استمالتهم للاتحاق بالجماعة الإسلامية الجديدة، كان المسيحيون هم الفئة الأولى المستهدفة بتلقي هذه الرسالة. يمكن رؤية الأمر صراحة في النقوش الأصلية، ومعظمها ذات أصل قرآني، وهي تُرى بوضوح وسط فسيفساء الزهور الجميلة داخل قبة الصخرة. جرى تحليل النقوش التي يزيد طولها عن ٢٤٠ متراً بعناية على يد عدد من الباحثين، آخرهم غرابر، الذي بيّن أن الهدف منها كان تبليغ رسالة توحيدية قوية معادية للتثليث موجهة أساساً إلى الذين انتزع المسلمون المدينة منهم، وما زالوا آنذاك خصومهم الرئيسيين دينياً وسياسياً.

ومما يثير الاهتمام ما يدل على أن اليهود الذين سمح الفاتحون المسلمون لهم بالعودة إلى القدس، بعدما طردوا منها على يد تيتوس عام ٦٠٠، لم ينظروا بسلبية نحو تبجيل المسلمين لأكثر الأماكن قداسة عندهم. فقد رحّب اليهود بالمسلمين، كما فعلوا قبل عقود قليلة عندما رحّبوا بالانتصارات المؤقتة للفرس على المسيحيين البيزنطيين الروم، الذين اضطهدهم.

وخلال سنوات قليلة تم تخليد انتصار المسلمين بالحجر في مكان بقي فارغاً عن عمد من جانب البيزنطيين كعلامة لسموهم على اليهود. وفي الحال، شكّلت تلك المباني الجديدة المدهشة والمترفقة في المكان نفسه تأكيداً لا لبس فيه على انتصار الإسلام وقوة واستقرار الأسرة الأموية.

٣

في بانوراما القدس اليوم كثير من التباينات التي تلتقطها العين. وربما كان الأكثر إثارة بينها السماء الزرقاء، عادة، والحجر المحلي الخفيف اللون، الذي بنيت منه القدس على الدوام، وعكس الشمس الساطعة دائماً، في إشراقها على الأماكن المقدسة كالحرم الشريف. فالتباين بين الحجر والسماء سمة للمدينة تجلت على مدار قرون: نعرف بأنها كانت على هذا النحو، بالتأكيد، منذ بداية العهد الإسلامي، ولا ريب بأنها كانت كذلك من قبل. وقد أدرك هذا التباين ووسعه، بصرياً، بعض بناء المدينة العظام عبر التوظيف المدهش للأزرق والذهبي، ألوان السماء والشمس، في قبة الصخرة، وربما في أبنية قبلها.

ولكن ثمة تباين آخر سرعان ما يتجلى لمشاهد اليوم. الانقطاع المقلق بين الأبنية

الأقدم في المدينة، خاصة الطراز الإسلامي التقليدي للطوبوغرافيا المبنية للمدينة القديمة، المحاطة بأسوار رائعة شيدت في القرن السادس عشر، على يد سليمان، أعظم سلاطين العثمانيين، وبين الأبنية الأحدث عهداً، خاصة الإسرائيلية الزاحفة على رؤوس التلال في الأفق.

هناك نوع من الانسجام مع المكان، ومع بعضها البعض، بالنسبة للأبنية الحجرية الناجية من العصرين العثماني والملوكي، وهي تشكل معظم ما يُرى في المدينة القديمة، إلى جانب وفرة من الأبنية الأموية والعباسية والفاطمية والصليبية والأيوبية الأقدم. كما يصح الأمر نفسه، وإن كان بدرجة أقل، على معظم الطوبوغرافيا المبنية خارج أسوار المدينة القديمة، التي يرجع تاريخها إلى أواخر الحقب العثمانية والبريطانية الانتدابية، حيث الفيئات الأنيقة، والأبنية الحكومية والتجارية، وعمارات الشقق خارج الأسوار في الأحياء العربية كالشيخ جراح، وراس العامود، وسلوان، وفي الأحياء العربية السابقة كالتالبية، والبقية، والقطمون. وفي كثير من الأحياء اليهودية الأقدم إلى الغرب والشمال الغربي للمدينة القديمة.

هناك بلا ريب عدد من العيّنات المعمارية غير الهامّة أو المميّزة أو المثيرة. لكن ارتفاعها المتواضع عموماً (يزيد القليل منها فقط عن طابقين أو ثلاثة طوابق) واستخدامها للحجر الخام، أو غير المصقول بالطرق التقليدية، واستجابتها لتضاريس الأرض، تجعل لتلك الأبنية صلة تكاملية مع المدينة القديمة القروسطية ذات الشكل المستطيل، التي تمثل قلب القدس.

ولا يصح شيء من هذا القبيل على الأبنية التي أنشأتها إسرائيل منذ عام ١٩٦٧، خاصة المناطق السكنية للإسرائيليين، المسماة مستوطنات من جانب العرب، وأحياء من جانب الإسرائيليين، في القطاع الشرقي العربي من القدس. فهنا يتجلى الانقطاع في أبلغ معانيه، لأن هذه الأبنية لا تشبه التي ذكرتها، والتي تبدو لمعظمها علاقة عضوية ببيئتها. على النقيض، تشبه الأبنية الجديدة مواقع للحراسة، التي يبدو بعضها كأبراج المراقبة، والبعض الآخر كقلاع، في حالة متعارضة مع التضاريس التي تقف عليها. فهي تلوح في الأفق ضخمة، ثقيلة، ومربّعة، تسد الفضاء وتغطي الأرض، وغالباً ما توحى بأنها فُرِضت على أماكنها بلا احترام للطوبوغرافيا، باستثناء الانتباه الحذر لضرورة الارتفاع إلى أوضاع دفاعية واستراتيجية.

وليس ثمة تباين أكثر وضوحاً من هذا مع تحف معمارية كأسوار المدينة، التي بناها السلطان سليمان، والحرم الشريف بما يضمه من أبنية (تشمل سلسلة من الأبنية الملوكية بيّنها غرابر ولم أتناولها في هذه الورقة، لكنها تتمم طاقم الحرم

بشكل مثير للإعجاب). فهذا تباين بين زينة تستهدف لفت انتباه الناس، سواء كان تزيينياً للمشهد بطوبوغرافيا مبنية، أو زينة أبنية بعينها، وبين صرامة عسكرية، وقبح تام وتبلد يثير النفور بشكل صريح.

وبين كل ما فعلته إسرائيل في القدس الشرقية منذ عام ١٩٦٧، في ثلاث مناطق فقط ربما يتمكن الإنسان من الإحساس بنوع من الزينة ومن المحاولة الفعلية لإشباع الحواس، بدلاً من عرض عناد قوة عسكرية متفوقة وبرودها وضرورتها الاستراتيجية. هذه المناطق هي الحدائق العامة وممرات المشاة حول جدران المدينة القديمة التي جرى إبرازها مؤخراً، وساحة الحائط الغربي العامة، المتكشفة تماماً في الواقع، لكنها تتحرك أسفل الحجم الضخم للحائط الغربي لسياح هيرود، وأجزاء من الحي اليهودي المجدد، حيث الشوارع المعبّدة حديثاً، والاكتشافات الأركيولوجية، والطلعة المعنية بأدق التفاصيل. لكن العين المدربة ترى حتى في هذه المناطق الثلاث ما يمثل طبقة فوق أخرى من المعنى، كما سنرى.

يتضح من قراءة الطوبوغرافيا المبنية لمشروع الاستيطان الإسرائيلي شرق وشمال وجنوب المدينة القديمة، في مناطق من القدس ضمت بعد عام ١٩٦٧، أن العديد من الرسائل بلّغت، بواسطة تلك الأبنية ذات القبح الشنيع أغلب الأحيان، بقليل من الزينة أو من دون محاولتها. هذه الأبنية تمثل مشروعاً لا يحترم المكان، ولا ينم عن حساسية تجاه تقاليد العمارة المحلية، ويعير القليل من الاهتمام لما في الجهود الفعالة من تأثيرات تراكمية على الطوبوغرافيا المبنية للمشهد.

فقد مجد المزاج العام لدى الإسرائيليين بصورة دائمة عمل الإنسان للسيطرة على الطبيعة، وقدرته على إخضاع البيئة. لذلك، يُرى الفلسطينيون في نطاق تلك النوايا والأهداف، كجزء من هذه البيئة، كما نظر الرواد الأميركيون، بلا ريب، إلى الأميركيين الأصليين، باعتبارهم قوة طبيعية متوحّشة ينبغي قهرها كجزء من عملية الحضارة. أما ما تركه العيش خلال ألفي عام من أثر على الطوبوغرافيا، عبر مصاطب زراعية شاملة، وقرى ومدن، وبلدات، فلا يرى من هذا المنظور إلا كشيء لا يمت بصلة إلى الفلسطينيين الحاليين، أو كبقايا قديمة لوجود أسلاف الإسرائيليين المعاصرين.

هناك اختلافات هامة، بالطبع، في رؤية الإسرائيليين لطوبوغرافيا البلد. وثمة انقسام عميق في صميم المشروع الصهيوني في فلسطين بين مجلي الأرض وعلاقتها بدورات وأحداث التاريخ اليهودي، على نحو يكاد يكون صوفياً، يريدون معه الحفاظ عليها) رغم تعاميمهم بشكل عام عن وجود الفلسطينيين الذين عاشوا في الأرض على مدار أجيال وما صنعوه فيه) وبين مؤيدي السيطرة على الأرض كجزء من إعلان ملموس

عن انتصارهم على الشعب الفلسطيني، الذي يعيش أو عاش فيها. ينتمي علماء الآثار، والمسؤولون عما يدعى المناطق الخضراء، التي يحظر البناء فيها، إلى معسكر، وينتمي مخطوطو توسيع الاستيطان والمستوطنون والبنائة إلى معسكر آخر. ولكن حتى المناطق الخضراء، ومناطق التحريج، تستهدف خدمة أغراض سياسية أيضاً.

تجلى هذا الأمر في مذكرة لسلطة الأراضي الإسرائيلية عام ١٩٨٥، حول غابة جديدة يجري غرسها على حافة قرية صور باهر العربية، داخل حدود بلدية القدس، وقد ذكرها شاؤول كوهن في كتابه: ليس من السهل غرس غابة حقيقية اليوم، بل بالأحرى غرس غابة هزيلة هدفها الأساسي حماية المنطقة. ومن نافلة القول أن المنطقة تُحمى من سكانها العرب، وميلهم غير المناسب لفلاحة أرض يملكونها.

أما في إدارة الأقسام الشرقية من القدس بعد احتلالها عام ١٩٦٧، فقد واصل رئيس البلدية آنذاك، تيدي كوليك، سياسة السلطة الكولونيالية البريطانية السابقة، في حظر البناء على جبل الزيتون، الذي يقدم بحالته الطبيعية غير المبنية خلفية مثالية تُرى المدينة القديمة من خلالها.

ورغم أن هذا الحظر حال دون ممارسة الملاك العرب لحقوقهم، ومنع التجاوزات مثل الاستيلاء على الممتلكات، والفضاعات الجمالية الناجمة عن بناء مساكن جديدة للإسرائيليين في أجزاء أخرى من القطاع الشرقي المحتل، إلا أن احترام القيم الجمالية وحقوق الملكية لم يحولا في النهاية دون استخدام بلدية كوليك لحق الحكومة في مصادرة الممتلكات الشخصية، والاستيلاء على رقعة كبيرة من الأرض قرب قمة جبل الزيتون وتأجيرها بفائدة ضخمة لكنيسة المورمون، بينما مُنعت أصحاب الأرض الفلسطينيين من استخدام أملاكهم الخاصة. وفي ذلك المكان ينتصب اليوم مركب أبنية تضم معهداً تعليمياً للمورمون يتبع جامعة Brigham Young University.

وكما يتجلى في هذا المثال، فليس ثمة ما يدعو للافتراض بأن تيدي كوليك، الذي يعاملونه كقديس، والمحبوب من الليبراليين في العالم، كان متعاطفاً مع الفلسطينيين سكان المدينة. فقد أشرفت إدارة بلديته، بالتعاون مع الحكومة، على تدمير حي المغاربة وطرد سكانه بعد عام ١٩٦٧، لفتح المجال أمام الساحة العامة الكبيرة المتواجدة اليوم قبالة الحائط الغربي، وفي الوقت نفسه طرد العرب الذين التجأوا إلى الحي اليهودي بعد فقدان بيوتهم في الجزء الغربي من المدينة عام ١٩٤٨، كما صادر أملاك الفلسطينيين أصحاب المشاريع التجارية قرب أسوار المدينة القديمة كجزء من مشروع تجميلي بين الامتداد الكامل لأسوارها.

وبينما كانت للمشروع الثاني مبررات جمالية، وألحق الأذى بمنشآت تجارية، وليس بمناطق سكنية، فإن طرد السكان العرب من الحي اليهودي، وحي المغاربة، مهما كانت الفائدة العائدة منهما على آخرين، قد ألحق الأذى بطوائف كثيرة من الناس.

ففي الحي الأوّل، الذي لحقته أضرار كبيرة ونُهب في حرب عام ١٩٤٨، نشأ حي يهودي مُجدّد وموَسع إلى حد كبير ويخلو من العرب (بقرار من المحكمة العليا) حي تزيّنه دكاكين حصرية، ومدارس دينية يهودية مكلفة، ومساكن باهظة الثمن، يعيش الكثير من ساكنيها الجدد في الولايات المتحدة معظم الوقت (أحد الأماكن القليلة في القدس حيث تبدو الإنكليزية لغة ثانية).

أما الحي الثاني فمع تحرك الجرافات، فقد شرّد المئات ممن عاشوا فيه وهو الحي الذي أقيم منذ قرون، بمساجده ومزاراته، مع تحرك الجرافات إلى الداخل. ونال هؤلاء تعويضات مثيرة للسخرية برعت الدولة الإسرائيلية في السخاء بها عند انخراطها في مشاريع للهندسة البشرية الاجتماعية - السياسية. تنتصب اليوم في مكان حي المغاربة ساحة واسعة الأرجاء، مسرح صلوات يومية عامّة على مدار الساعة أمام الحائط الغربي، واحتفالات رئيسية بالأعياد اليهودية، وتظاهرات سياسية من وقت لآخر، واحتفالات بتخريج وحدات النخبة في الجيش الإسرائيلي.

عندما نحاول تقييم وقراءة المؤثرات الحاصلة بعد عام ١٩٦٧ في ساحة الحائط الغربي والحي اليهودي المتناخم - بالرغم من تأكدها للوجود الإسرائيلي واليهودي في القدس، ولو على حساب آخرين - فإن ثمة درجة أقل من الانقطاع مع نسيج المدينة القديمة المحيطة بهما، مقارنة بما فعلت الدولة الإسرائيلية في القدس وحولها منذ عام ١٩٦٧.

صحيح أن بعض الأبنية الأحدث في الحي اليهودي، بطولتها الثقيلة الشبيهة بالقلاع، تصدم العين، لكن أماكن أخرى شهدت تجديدات تمتاز بالحساسية لأبنية قديمة (يرجع بعضها إلى ما قبل إنشاء الحي اليهودي نفسه في المنطقة في وقت ما من العهد العثماني، ربما في القرن السادس عشر أو السابع عشر).

لا يتنافر بعض البناء الجديد مع المدينة القديمة، حيث معظم الأبنية هناك تبلغ على الأقل ٤٠٠ و ٥٠٠ سنة من العمر. بالقدر نفسه، يخدم كشف الحائط الغربي، الذي كان جزءاً من سياج معبد هيرود، في إظهار جزء من الحرم الشريف. فكما يعرّز كشف مساحة الحائط لدى المشاهد ذكرى أحد المعلمين، فإنه يعمق لدى المشاهد نفسه الانطباع القوي عن الأبنية القائمة في الثاني.

إجمالاً، لا يصل التباين بين طلعة الحي اليهودي، وساحة الحائط الغربي، وبين

الواجهة الإسلامية للمدينة، أساساً، حدّاً يصدّم العين. وبمعنى ما فإنه يعززها. ولا يمكن قول ذلك، للأسف، بشأن أغلب ما فعلته إسرائيل في الطوبوغرافيا المبنية منذ احتلالها للقدس عام ١٩٦٧.

٤

بالتالي، ما هي التضمينات السياسية لواحد وثلاثين عاماً من الجهود الإسرائيلية لتغيير الطوبوغرافيا المبنية للقدس الشرقية؟ لقد ألمحنا إلى بعضها، لكن البعض الآخر غير واضح المعالم. فأحد التضمينات الواضحة لتلك الجهود كان تعزيز اللامساواة المأسسة بين اليهود والعرب في المدينة القديمة. كل الأبنية التي تكلمنا عنها على التلال المحيطة بالقدس إلى الشمال والشرق والجنوب متاحة، حصرياً، لاستخدام الإسرائيليين. هناك إعانات مالية حكومية متنوعة متاحة للإسرائيليين فقط، يقتصر معظمها على اليهود وحدهم، عبر وسائل من نوع اشتراط صلاحية القروض والمعونات بالخدمة العسكرية في الجيش، أو عبر تقييدات صريحة من جانب الصندوق القومي اليهودي على بيع أو تأجير أملاك لغير اليهود. ونتيجة لهذه الوسائل، تمت استمالة نحو ١٨٠ ألفاً من الإسرائيليين للإقامة في الإسكان الجديد في القدس الشرقية منذ عام ١٩٦٧.

وخلال الفترة نفسها ازداد حجم السكان العرب في شرقي القدس، لتصل نسبتهم إلى ما بين ٢٨ و ٣٠ بالمائة. لكن الفلسطينيين، خلافاً لليهود الإسرائيليين في القدس الشرقية، لا ينالون المعونات الحكومية، ولا يُسمح لهم ببناء مشاريع إسكانية تتماشى مع الزيادة الطبيعية في عدد السكان. كما تستخدم آليات تمييزية واضحة ومتنوعة لحظر أو حصر البناء العربي، بما فيها تقييدات مناطقية عبثية، وهدم بيوت. ففي الفترة ما بين ١٩٦٧ و ١٩٨٠، وما بين ١٩٨٢ و ١٩٨٧ هُدم ما يزيد عن ٤٥٠ بيتاً عربياً على يد السلطات الإسرائيلية. وهدم ١٠١ بيت آخر منذ توقيع اتفاقيات أوسلو في سبتمبر ١٩٩٣.

هدمت تلك البيوت في الأساس لأنها بنيت بطريقة غير مشروعة (أي بنيت دون الحصول على رخصة بناء يكاد الحصول عليها يكون مستحيلاً) وهدمت في حالات قليلة بدعوى اقتراف أحد ساكنيها لجرائم أمنية. ولا حاجة للقول بأن البيوت المملوكة لليهود لا تتعرض أبداً للهدم بهذه الطريقة، سواء كانت لديهم رخص بناء أو لم تكن، أو لأي سبب آخر.

فالخلاصة الصافية أن تلك الأبنية التي نراها زاحفة عبر قمم وسفوح التلال حول القدس مخصصة للإسرائيليين بصفة حصرية. كما يجابه العرب صعوبات جمّة في

بناء مساكن جديدة بسبب قلة الأرض، أو عدم وجود أرض مخصصة للبناء العربي. لذلك عليهم العيش، أغلب الأحيان، في بيوت آيلة للسقوط محصورة داخل جزر صغيرة في المساحة الكلية للقدس الشرقية. أما الباقي فمخصص للإسرائيليين: صودر ما يزيد عن أربعين بالمائة من المنطقة التابعة للضفة الغربية في عام ١٩٦٧، من أصحابها العرب لإقامة تلك المستوطنات ومنشآت أخرى لفائدة الإسرائيليين وحدهم، بينما خصصت مساحات شاسعة أخرى كخطوط خضراء، غير مخصصة للبناء، وهكذا دواليك.

هذا أحد أشكال التمييز الملموس الفاضح ضد العرب في القدس منذ عام ١٩٦٧ يلاحظ ميرون بنفنستي أن ٣ بالمائة فقط من موازنة تطوير المدينة عام ١٩٨٦ أنفقت على القطاع العربي، وفي عام ١٩٩٠ أنفق ٢,٦ بالمائة. ومع ذلك، ينطوي هذا الشكل من التمييز على أكثر التضمينات السياسية وضوحاً إزاء السمة الأكثر بروزاً للعيان، أي الطوبوغرافيا المبنية للقدس: المستوطنات التي تحوّم على التلال من حولها. ثمة تضمين آخر للتغييرات في المشهد الحصري الناجم عن الاحتلال الإسرائيلي للجزء الشرقي من المدينة عام ١٩٦٧، وهو أن القدس أصبحت حدود المشروع الصهيوني مع نهاية القرن. وحين كانوا يملأون الأرض بالناس في إطار ترتيب استراتيجي معين (على امتداد الساحل من يافا إلى حيفا، وجنوباً من حيفا إلى بيسان، ثم صعوداً إلى إصبع الجليل الشرقي، على شكل حرف N) فقد كان ذلك هدف المرحلة الصهيونية الأولى قبل عام ١٩٤٨. ومع تحقيق سيطرة كاملة على مساحات شاسعة جديدة منتزعة من الفلسطينيين والجيوش العربية خلال حرب ١٩٤٨، كانت تلك هي الحدود الأساسية في الفترة من ١٩٤٨ - ١٩٦٧. ومنذ عام ١٩٦٧ برزت حوافز متناقضة بقدر ما يتعلق الأمر باستعمار ما تبقى من فلسطين.

وقف الداعون إلى استيعاب سائر الضفة الغربية، يهودا والسامرة حسب تعبيراتهم، وقطاع غزة وهضبة الجولان في جانب، ووقف دعاة آخرون من أجل التخلي عن معظم المناطق المحتلة وملايينها من العرب، حفاظاً على يهودية الدولة، في جانب آخر. ومن غير الواضح لمن من هاتين النزعتين ستكون الغلبة في النهاية.

ولكن إذا كان من الواضح وجود انقسام لدى الإسرائيليين تجاه الاستيطان في أماكن أخرى، فثمة درجة عالية من الإجماع على ضرورة الاستيطان في القدس العربية وبالتالي السيطرة عليها. معنى هذا الأمر، بصرف النظر عن أي شيء آخر، مثل انقسامات إسرائيل السياسية، أو عملية السلام، التي لا تتماشى بقسوة مع اسمها، فإن المرجح أن تتواصل الدينامية التي خلقت بانوراما المستوطنات الإسرائيلية حول أفق

القدس برمتها.

يمكن، بالتأكيد، للجهود الفلسطينية الرامية إلى مقاومة هذه العملية، أو لعب دور فاعل في تشكيل الطوبوغرافيا المبنية للمدينة، والتي لم تكن قابلة للملاحظة أو أنها كانت غير قوية طيلة ٣١ سنة مضت، إبطاء تسارعها، وكذلك كشف ما تعنيه أمام الرأي العام العالمي.

في الوقت نفسه، نجح الفلسطينيون نسبياً، بمعزل عن أي جهد سياسي من جانبهم، على المستوى الديمغرافي، رغم السياسات الإسرائيلية الرامية إلى تقليص عدد السكان العرب في المدينة. ومعنى هذا الأمر أنه، رغم كل التغييرات التي أحدثتها إسرائيل خلال العقود الثلاثة الماضية، فإنها لم تنجح في تغيير المعادلة التي ورثتها في عام ١٩٦٧، بقدر ما يتعلق الأمر بسكان المدينة: ما زال أقل بقليل من ٣٠ بالمائة من إجمالي السكان من العرب.

أما ما نجحت إسرائيل في تحقيقه عبر احتلالها وضمها للقدس الشرقية، وإقامتها لاحقاً لحلقة حجرية حول المدينة، فيتمثل في اقتفاء سابقة وضعها للمسلمين الخليفة معاوية في البداية، ووضعها قبل ذلك بقرون الأباطرة الرومان والبيزنطيون، كما وضعها هيرودس، وربما الملك سليمان نفسه قبلهم: اقتران القدس بإضفاء الشرعية على السلطة، قبل وأبعد من أية دلالات دينية تخصها. فعلت إسرائيل ذلك بنجاح مستخدمة قوتها ليس للاستثمار في الدعاية، أو تنشيط السياحة، وما لا يحصى من الوسائل لتأكيد سلطتها في البلد من خلال سيطرتها على القدس، بل استخدمت تلك القوة في تغيير الطوبوغرافيا المبنية للقدس كرمز قوي ودائم لسلطتها السياسية الحصرية على المدينة.

وإذا أراد الفلسطينيون تفنيد هذه الحصرية، وأتيحت لهم فرصة الحصول على نصيبهم الشرعي في القدس، سيحتاجون بالطبع إلى قوة أكثر مما لديهم اليوم. ولكن إذا أرادوا النجاح فعليهم استخدام تلك القوة، ويستطيعون حتى في الوقت الحاضر استخدام مصادر القوة الكبيرة التي يسيطرون عليها، مثلاً من خلال التجديد الشامل وصيانة مئات من الأبنية القديمة المملوكة للعرب داخل المدينة القديمة لإضفاء الشرعية على سلطتهم ومكانتهم على غرار جميع الأنظمة السابقة التي تركت بصمة دائمة على القدس، عليهم القيام بذلك عبر الكتابة على المشهد بالحجر، بالأبنية للتأثير بهذه الطريقة على الطوبوغرافيا المبنية لهذه المدينة القديمة.

ترجمة: ح.خ